

## وداعاً.. ممتاز البحرة أهم رسامي أدب الأطفال ومبتكر شخصيتي باسم ورباب

### ذاكرة طفولتنا وقضايانا تغيب

# ممتاز البحرة: على الجيل الجديد أن يؤمن بأن دمشق منبع المحبة.. وابتعدوا عن اليأس

إسوس صيداوي

اثنا عشر عاماً من العزلة في دار السعادة للمسنين، اختارها ممتاز البحرة بطواعية مطلقة، وبضوح كبير، وبتفوق عاطفي لا يمكن لأي امرئ أن يستوعبه أو أن يقدم عليه، إلا إذا كان على جانب كبير من الاستقلالية وقدر أكبر من التوازن العقلي والفكري وأيضاً العاطفي، إضافة إلى ما يملكه من جوانب شخصية مسؤولة عن راحة الطرف الآخر قبل ما تريده النفس. نعم لقد اختار أن يعيش في دار السعادة للمسنين في المزة وابتفاق مع أم الأولاد، محترماً الرغبة ومكتفياً بالتعود على غرفة من أربعة جدران، ضيقة المساحة، واسعة بفضاء العاطفة والمحبة، أنا لم أعرف من قبل أنه يعيش هناك، ولكن لكوني من جيل تربى على رسوماته وواحدة من أصدقاء

صفحة فيسبوكية مخصصة لرسوماته، مرة سألت عنه رئيس قسيمي، قسم الثقافة والفن الدكتور إسمايل مروة الذي أخبرني بوجوده في الدار، وطلب مني محاولة التواصل مع الفنان الراحل، وعلى الفور بادرت بالاتصال بالاستعلامات ثم بالدار، وفي الأخيرة حولوا المكالمات، لم أتمالك نفسي ولكن صوته الهادئ والدافئ والمتفهم هو ما هدأ حماستي.

بداية كان رفضاً أن يقابلني كصحفية إلا أنه رحب بلقائي لأنني كنت طفلة تربت في كتبها المدرسية على رسوماته المخصصة باسم ورباب وميسون ومازن، اتفقنا على موعد وذهبنا أنا وزميلي عامر فؤاد عامر، جلسنا وكأن لقاءات كثيرة سابقة كانت جمعتنا، لم نشعر بالغربة بل الإلفة هي الحاضرة، سألنا عن عملنا وأحوالنا في الوقت الذي حضر لنا فيه الشاي في غرفته، كان هادئاً جداً، مستمعاً رائعاً، متفهماً بشكل

كبير ومدركاً لكل ما هو حوله، وعندما كان يستنشق دخان سيكارتته من نوع «الحمراء الطويلة» ثم ينفث الدخان وينطق بعدة كلمات، هنا شعرت بأنه يرسم كلماته عبر الدخان الذي ينفثه من صدره وقمه، كان متزناً جداً ورسين الكلمة، كلماته كانت غير مفهومة، وكما شرح لنا أن الندبة في وجهه ناتجة عن حادث أصابه في آخر مرة كان يقود فيها «موتو سيكل» حينما كان يعمل في جريدة «تشرين» والتي كانت في بدايات التأسيس، لم تهمة الندبة ولا الجرح ولم يفكر يوماً بأن يخضع لعملية تجميل، بالتأكيد لأنه جميل الروح والقلب.

قامته المشوقة فيها من الشباب شموخ ومن الكهولة حكمة ومن الطفولة نشاط وحيوية، السنون لم تغلبه فهو نازلة حديدية، اختار البقاء لن أقول وحيداً، بل مستكيناً هادئاً مستمتعاً بسلام كبير شق على الكثيرين من الأشخاص أن ينعموا به.



#### الرسم في السعادة

في بداية وجوده في دار المسنين كان يمارس الرسم ولم يبتعد عن ريشته وألوانه إلا أنه بعد أعوام، لم يعد جسده قادراً على التعب والجهد الذي يتطلبه الرسم، وخصوصاً أن الفنان الراحل البحرة إن أراد أن يرسم فلا يرسم لأقل من عشر ساعات، الأمر الذي أتعبه جسدياً وهذا ما باح به «وأنا في أول سنتين جئت بهما للدار «دار السعادة» كنت أرسّم بشكل محدود، فلقد كان الأمر سهلاً على وخصوصاً بسبب بساطة أدواتي التي تتألف من لوح خشبي أضعه على ساقي والحبر والفرشاة أمامي».

#### أولاده في رسوماته

رفض الراحل ممتاز البحرة الزواج مرة أخرى، فهو يمشق أولاده الثلاثة ويذكر تفاصيل طفولتهم الدقيقة، وهذا أمر واضح لأن رسوماته ألوانها وخطوطها مزوجة بالعاطفة والدفء ومعبرة عن الحنان، وفيها انعكاس كبير لأولاده خاصة ولكل طفل سوري، ولكن ورغم عشقه للرسم إلا أنه لم يشجع أولاده على امتيانه بل أراد منهم أن يمتحنوا أموراً أخرى كي يتلافوا ما تعرض له من مشاق قاتلاً: «لدي ثلاثة أولاد، ابنتي «نوال» وهي مهندسة مدنية ورسامه هاوية، وابني الأوسط «محمود» واسمه على اسم أبي وهو دكتور صيدلاني مختص في صناعة الأدوية وابني الصغير «فارس».

كل أولادي يرسمون ويحبون الرسم ولكن لم يتابع أي منهم الرسم، وكانوا يقولون في ترويض أن نرسم فكتت أقول لهم إني أردتم وكانت رغبتكم فادرسوا الرسم، ولكن درب الرسم صعب وأنا أعرف مشاقه وكنت قد جربته وأعرف كم يصعب كسب قوته».

#### وطني عاملني بمحبة واحترام

ممتاز البحرة رجل طيب النفس، لا يحقد ولا يكره، ولا يجرح نفسه بآلم الحرارة رغم من آسائه إليها، بل يكتفي باحتضان الجميل من الماضي مع قناعة كبيرة وثقة أكبر بما لديه من محبة وامتنان لنفسه أولاً وللآخرين، ومن ثم لوطنه الكبير حسب ما قال: «لا أمك أي شعور بالمرارة أبداً، وأحياناً أشعر بأن ما أخذته أكثر مما استحقته، حتى في مرحلة التعب وفي مرحلة السجن، وفي مرحلة تحصيل الحد الأدنى من العيش، وأذكر أنني مرتت في مراحل صعبة فلم أتمكن مثلاً من شراء بذلة في بعد زواجي بـ ١٥ أشهر من ٢٠ عاماً، وعلى الرغم من ذلك أنا لا أشعر بالمرارة أبداً، فقد وصلني أكثر من حقّي ولا شعور لدي بأنني أنتظر المقابيل، ومنذ كنت أعمل وأقدم اعتدت ألا أنتظر شيئاً، بل دوافعي للعمل هي المحبة والاحترام، وأنا من النوع الذي يدافع عن حقّه ولا أتنازل عنه مطلقاً، لكن أذكر أنني كنت أخجل في بدايات العمل من المطالبة بأجرتي، لكن التجربة علمتني مع مرور الوقت وخاصة بعد الزواج المطالبة بالحق.

وأنا لا أحب مطالبة بعض الأشخاص بتكريمهم بل أطلبهم باشغلي. مظلما عاملت الشخصيات التي رسمتها بمحبة واحترام وإخلاص، كذلك الناس في وطني عاملوني بالمحبة والاحترام والإخلاص».

كنت أقول  
لؤلؤادي إذا كانت  
رغبتكم.. فادرسوا  
الرسم.. ولكن  
دربه شاق وأعرف  
كم يصعب  
كسب قوته

#### سلام السعادة

اختار أن يكون بعيداً عن الصخب لأنه يكره النفاق والكذب، فهو محب براحمته، والمشاعر برأيه لا تخلق عنوة بل هي حرة في اختيار محبتها وهذا بالنسبة له الأمر الطبيعي وخصوصاً أنه لا يراوغ في محبته، يخلق كالطير في السماء عالياً معتبراً أن يراحمها بمدى جناحيه، أخلاقه ومبادئه وقنه أمور لا يمكن لمرء أن يساوم عليها، ويرفض أن يقع أسيراً بسببها، ولأن رسوماته كانت محبوبة من الجماهير هذا الأمر أشار غيظ الكثيرين والمنافسين غير الشرعيين والذين اعتمدوا سياسة التفتيش وعليه قرر هجر رسم الكاريكاتور وإغلاق الباب من دون أن يعيد فتحه من جديد، ليس لأنه استسلم أو شعر بالضعف، بل لأنه لم من عقلية تحارب الطموح والنجاح، كيف لا وهو المتفائل دائماً رغم رحيله عنا بعيداً، نعم لقد غادرتنا في السادس عشر من الشهر الحالي في دار السعادة للمسنين، إلا أنه سيبقى أبداً لجيل تعلم المبدأ والنتائج الخلق ولس الأمل والتفاؤل في رسوماته وألوانه، رحل من اعتبر الطفولة مسؤولية كبيرة لا يجوز للكبار التلاعب بها، موصياً الجيل الجديد بأن يؤمن بأن دمشق هي منبع المحبة ووداعياً إلى عدم اليأس وبالمحبة، مطالباً الجميع بأن يكونوا على قدر أكبر من التحضر في التعامل مع المحيطين للوصول إلى مكان مشرق بالأمل والوعد بالأفضل كما هي حال رسوماته.

#### دمشقي العشق وسوري الهوى

تمسك ببلده مختاراً واحتضن كل أحيائها في قلبه فتمتعه هي السير في شوارعها ليلاً، فكيف يترك سحرها ويمضي إلى بلاد لن يشعر من يعيش فيها بوجوده، بعكس بلده ووطنه سورية وخاصة دمشق التي كان يشعر أنها تمسك بيده في كل خطوة يخطوها في أحيائها وشوارعها، رغم ما كان يضغط عليه من معوقات مادية ورغم الحاجة التي كانت تخنقه إلا أنه بقي مكافحاً مؤمناً بأن له رسالة هنا، وهو معني بها، فهو محدث لتغيير كبير وحقيقي في التربية والأطفال وهذا ما أشار إليه في حواراً الذي انفتحت به صحيفة «الوطن»: «لم أسافر واخترت أن أبقى في بلدي، ومن الذكريات الجميلة كان لدي صديق اسمه «أبو الخير حلاق» وكنا في دورة الإنكليزي فتعرف إلى ابنة الملحق الثقافي السوداني، وطبعاً خلال الدرس أنا كنت أرسّم رسومات والقي بها، في حين هو كان يأخذ رسوماتي ويحتفظ بها، وفي مرة شاهدت الفتاة السودبية الرسومات وأخبرت والدها عني وهنا تم عرض السفر على فقلت لهم: «لن أسافر فأنا هنا رسام وقد أكون الوحيد في مجالي وتخصصي، في حين عندهم هناك أكثر من خمسمئة رسام، فأنا أفضل أن أبقى في بلدي والعب هذا الدور هنا وبطبيعة الحال فثانوكم هم كفاية لكم ولستم بحاجة لي، على الرغم من أنني بوقتها كنت أعاني ضائقات مادية صعبة تزامنت مع هذا العرض، حتى إنني وقتها بكت بحرقه لأنه لم يكن معي ثمن شراء الحليب لابنتي الرضعية».

وصحيح أنه ولد في حلب إلا أنه تربى في دمشق العاصمة التي فتنته بسحرها وحضنها الواسع لكل سوري بغض النظر عن مذهبه كما قال: «ولدت في حلب نتيجة ظرف والدي المهني، لكن تربيت في دمشق العاصمة التي تجمع كل الناس، وهذه أهم

#### نبذة عن سيرة كبير

توفي الفنان التشكيلي ممتاز البحرة بتاريخ ١٦/١/٢٠١٧ في دار السعادة للمسنين، رحل من أعطي للطفولة الفرح بالألوان، رحل من ربي أجيالاً على التفاؤل والتطلع نحو الأفضل، رحل أب الطفل السوري بعد أن ترك بصمة لا يمكن لأي طرف أو شخص أن يستطیع التأثير فيها في كل مراحل ومحطات حياته والتي سنجزها في السيرة التالية:

محمد ممتاز البحرة (من مواليد ٥ أيلول ١٩٢٨) فنان تشكيلي ورسام كاريكاتير سوري، ينتمي إلى عائلة دمشقية، لكنه بحكم عمل والده الرياضي والمربي الأستاذ محمود البحرة آنذاك كمشقش لمادة التربية الرياضية في مدينة حلب، كان التوقيت مناسباً بأن يكون مسقط رأسه مدينة حلب. تربى ممتاز البحرة في بيئة دمشقية محافظة وهو أكبر إخوته، وقد عاشت العائلة أغلب الوقت في مدينة دمشق (منطقة الإطفائية) لتنتقل فيما بعد إلى حي المهاجرين الحديث نسبياً في ذلك الوقت. كان له من العمر خمسة وعشرون عاماً عندما توفي والده عن عمر لا يتجاوز الواحد والخمسين عاماً الأمر الذي أثر به كثيراً ولكن لم يدفعه للتقاعس عن حمل المسؤولية وتولي رعاية أخويه. بدأ دراسة الفنون في مصر بالقاهرة إبان الوحدة بين سورية ومصر مع زملاء سوريين مثل نذير نبعه والدكتور غازي الخالدي ومصريين مثل محمد اللباد، لكن وفاة والده في السنة الدراسية الرابعة والانفصال بين الإقليمين السوري والمصري حالا بينه وبين إنهاء دراسته في مصر، وبوفاة والده عاد إلى سورية، الأمر الذي اضطره للبدء من السنة الثانية لإكمال دراسته بجامعة دمشق في كلية الفنون الناشئة، بعد أن كان ينهي دراسته في مصر فتخرج مع دفعة الخريجين الأولى لكلية الفنون اختصاص التصوير فني (أي رسم فني) حاصل على بكالوريوس الفنون الجميلة وكان من المتميزين بديفته ومن مدرسيه محمود حماد وحسين إسمايل ومحمود جلال، وسعيد تحسين. بعد التخرج عمل مدرساً للفنون الجميلة لمدة ٢٣/ سنة، بدأ فيها من مدينة الحسكة في شمالي سورية لمدة سنتين في معهد إعداد المدرسين، ليعود فيما بعد للتدريس في مدينة دمشق في عدة ثانويات دمشقية ومعهد إعداد المدرسين، لكنه وجد أنه من الصعب الجمع بين التدريس وعمله الفني فاستقال مبكراً. كما عمل بالصحافة فكان يقوم برسم الكاريكاتير والرسوم الصحفية في الجرائد اليومية. ومن الصحف والجرائد التي عمل بها جريدة الصرخة السورية التي كان يصدرها أحمد علوش ومجلة الجندي وصحيفة الطليعي، وجريدة الثورة وفيما بعد جريدة تشرين كذلك عمل بمجلات عدة مثل مجلة المعلمين ومجلة التلفزيون العربي السوري وغيرها.

يعد ممتاز البحرة من أهم رسامي أدب الأطفال إذ رسم للكتب المدرسية السورية التي تناقلها الأطفال في السنوات الدراسية الأولى فأحب الأطفال شخصياته باسم ورباب ولعل أكثر ما كان ذا تأثير جلي على الأطفال في سورية والعالم العربي رسومه للسلسلات المصورة (الكوميكس) التي أبدع فيها فكان من المتميزين والمؤسسين لمجلة أسامة مجلة الطفل العربي الصادرة عن وزارة الثقافة في دمشق، فأمتعت الأطفال بشخصيات مثل أسامة وماجد وسندباد من قصص ألف ليلة وليلة مع كتاب متميزين وقد كان من مؤسسي المجلة. قام برسم العديد من اللوحات الزيتية إلا أنه مقل بذلك عموماً ومن أهم لوحاته لوحة ميسلون المعرّوضة في بانوراما الجندي المجهول على سفح جبل قاسيون ومساحتها تقريبا ٢٥ متراً مربعاً.

